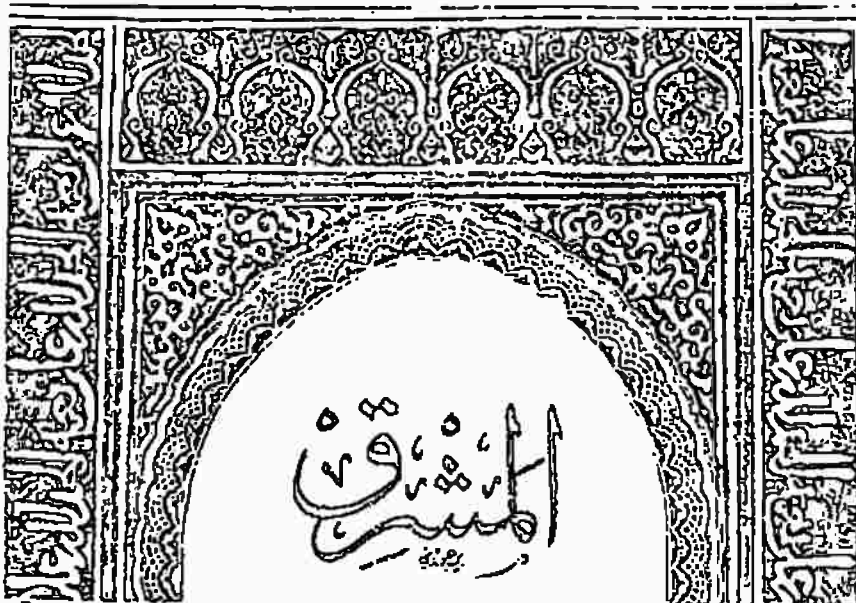




السنه الحادية والثلاثون

تموز ١٩٣٣

الحياة في بيروت قبل الاسلام*

بقلم الاب لانس البوعبي

١

لعلَّ صعبٌ دقيقٌ ان يفيض الانسان في مدح الاشخاص الاحياء . فان
 « الجبال » كما يقول الكتاب المقدس ، يزوي كزهر الحقول . وليس
 اقل من ذلك صعوبة وجرأة ان يقوم بالثناء على المعاصرين . ولهذا
 ينصح لنا الكتاب الكريم بان ننظر ريثما تكون الابدية قد خلّدت اولئك
 الاشخاص . واحال ان بيروت ، موضوع بحثي اليوم ، كانت حيّ دأبم حتى ان
 الجغرافي الكبير الذي ركلو لم يتردّد في ان يمنحها شهادة الدوام غير المنقضم
 فقال ان بيروت من المدن التي يجب ان تعيش ، وانها تعيش مها تقلّبت الاحوال .
 على انني تجنّياً للاتهام بالتألف ، وتباً لنصائح الكتاب الكريم ، ساحصر

(*) محاضرة القيت في كلية القديس يوسف

كلامي في الصور الماضية . واذا فتكون بيروت التي سأجهد في اطلاعكم على شيء من مظاهرها ، تلك المدينة القديمة الناعمة آثارها تحت ارضنا هذه . واني ارجو اليكم في ان تقطعوا معي حاجر التاريخ المجري الذي يفصلنا عن مدينتنا القديمة ، واذا بنا امام تلك الجدة الجميلة المقاطع ، على شيخوختها ، الجذابة القبلت ، وقد زانتها التوابق الرومانية والبيزنطية . فقرة واحدة تردنا اكثر من ثلاثة عشر قرناً الى الوراء ، واذا بنا في « بيروت السيدة مستمرة جوليا اغوستا » ، في بيروت يوستينانوس ، في بيروت الشهيدة بدمستها الحقيقية الحافلة بالاساتذة الذين دعوا من « مطمي السكونة » والذين اعدوا مجموعة الحق الروماني .

ولا يؤخذ من كلامي اني خصصت هذه الحقبة بالذكر ، لعدم وجود الشواهد على محاسن بيروت العثمانية . فان احد زملائي بالرهنة من اهل القرن السابع عشر ، وهو الاب بتون (P. Besson) ، يؤكد في كتاب عجيب خصه « بسورية المقدسة » ان تجار الفريجة في سورية ، على عهده ، كانوا يدعون بيروت « باريس المارانة الصغيرة » . ولكن باريس هذه ظلت صغيرة ، فلم تتقدم قيد شجرة على مدة قرنين كاملين . يظهر هذا من تلك الصورة التي رسمها لبيروت الرحالة پوجولا سنة ١٨٣١ فقال : « قُب ومنافذ سرية ، ومجازات مظلمة ، واسواق ضيقة ذات تعاريج . كل منزل فيها يكون شبه حبس مظلم لا يوصل اليه ، ولاسيا في الحي الاسلامي . » ولا شك ان من ترقى تذكاراتهم الى ما وراء اربعين سنة من سكان بيروت الحالية يعرفون في هذه الصورة بعض الخطوط الحقيقية للمدينة القديمة . ولم تمر سنة على وصف پوجولا حتى وصل لامرئين الى بيروت ، سنة ١٨٣٢ ، فأخذ منذ يومه الاول ، لا بالمدينة محصر المعنى ، بل بما سندهه قريباً بحاسن فنيقية . وهو يؤكد ان الرومانيين ألهموا حقاً اذ دعوا بيروت بالسيدة (Felix) . ويؤيد ان بيروت استعقت ذاك اللقب

« لمناخها الذي لا يقابله مناخ ، ولمركزها الفائق الجلال . »

وقد قضى لاسرتين بيتنا عدة اشهر كأنه في حالة وجد دائم ، ار في حلم نوراني لم يقطعه الا وفاة ابنته الوحيدة جوليا . وليحكم المطالع على هذه الحالة بقراءة المقطع التالي المأخوذ من « رحلته الى الشرق » : « ذهبت ، هذا الصباح ، هائماً على القمة التي يدعوها الروم مار ديمتري . . . وكنت في صفري كثيراً ما اتخيل هذا الفردوس الارضي ، عدن هذه التي لا تزال في تذكارات الهم كلها كأنها حلم جميل ، ار تقليد راقب الى زمن اتم وحالة اوفر كمالاً ، وقد تبعت ملتون في اوصافه الخلابة لهذا المكان السحري الذي اقام فيه ابوانا الاولان . ولكن هنا ، كما في كثير من الامور ، ارى ان الطبيعة تفوق المخيلة بما لا يُقاس . ولم يعط الله الانسان ان يحلم بكل ما صنعه من الجمال . لقد حلمت بجنة عدن ؛ اما الآن فيسكني القول انني رأيتها . »

هذا ولا اخال احداً منكم يجهل الحادثة المروية في سفر استير . وكيف ان الملك احشورش ، بعد ان خلصه مردخاي من الموت ، سأل رجال بلاطه عن الجائزة التي اعطاها المخلص . فكان الجواب انهم لم يعطوه شيئاً . ولولا الحفلات التي اقيمت منخراً تذكراً لالاسرتين ، لكان جوابنا يقرب من جواب احشورش . ومها قنا بشكر لاسرتين ظن ذلك قليلاً بالنسبة الى الاعلان المجاني المجرد الذي عرفنا به الى قراء ، تأليفه وهم كثيرون . لقد قامت بلديتنا في ما مضى بتسمية شارع باسم « شارع الشعر » ، وهو « شارع هوثلن » الحالي على ان الشعر يدعوا اسم شاعر خاص . فلماذا فضل فيكتور هوغو على لاسرتين فحضر به احد شوارع بيروت ، وليس في تأليفه الضخمة ذكر واحد لمدينتنا ، بيتنا نرى لاسرتين لا يسدع في وصف بيروت فحسب بل يجعل في مدينتنا الفردوس الارضي .

وهاكم ، بعد ذكر الشاعر ، ذكر كاتب وصاف مر في بيروت ، سنة ١٨٥٠ ، مرافقاً فلوير ، مؤلف سالامبو . وهو ايضاً قد تأثر بمجازية بيروت . واليكهم ما يقول عنها : « ان كونكا دورو لحنة في بالمة ، وان خليج نابولي لجميل ؛ اما بيروت فلا مثيل لها . لا المدينة نفسها ، وهي فقيرة لا عظمة فيها ، بل

البرية التي تحيها ، غابة الصنوبر ، الطرقات التي تحيط بها اغراس الصبار ، والآس ، والزمان حيث تقاوض (كذا) انواع الحرباء^(١) ، بل مشهد البحر المتوسط ، ومنظر قم لبنان الشجر . وقد رسمت على اديم السماء خطرطها الدقيقة الواضحة . هي عزلة نافعة ورياضة روحية لمن رغبوا في التأملات ، او خدعتهم الآمال ، او جرحهم الوجود . يظهر لي ان الناس يمكنهم هناك ان يعيشوا سعداء . اذا ما اكتفوا بالنظر الى الجبال والى البحر . وكـ من مرة ، في ساعاتي المؤلمة ، حلت بدافع يحلني على ان التبعي الى هنا فادخل تلك الطمانينة التي توليها مشاهدة الطبيعة . « على ان ما يفد ، وان قليلاً ، هذا الرصف اللذيذ ، هو تلك النبرة الضجرة القانطة التي يزيدما الكاتب الباريبي فيقول : « اظن اني لو اقت هاهنا لكنت اموت ضجرًا ، اقول هذا اذ ارى السرعة التي تدفع التجار الاوربيين الى اختطاف الرسائل القليلة الراجعة بالبريد . »

ولكن لنعد الى بيروت القديمة ، او بيروت ، مستفيدين من هذه الشواهد ان حسن بيروت النائق الدائم يستند خصوصاً الى مركزها المجيب ، في وسط فنيقية ، على ساحل لبنان ، حيث يتحد الجمال الساحر بين السماء والبحر والجبال . وهو ما يستفاد ايضاً من قول اميان مرسلان السوري ، آخر مؤرخي اللاتين المشاهير ، اذ يصف فنيقية فيقول عنها : « فنيقية مستندة الى جبل لبنان ، وهي ارض ملاءى بالبهجة والحسن . » هذا التضاد المجيب في المشاهد الفنيقية اذ يتقابل البحر والجبل ، وهذا السكون الهادي في الحقول المزوج بضجة الحياة البحرية وصخبها ، هو ما وصفه نئوز (Nonnos) شاعر عصر الانحطاط البيزنطي الذي سرف اكثر الشواهد من شعره في ما بعد . وهو يقول : « في هذا المكان ينفخ راعي البقر في شبابه على شاطئ البحر المرملة ، فيجتمع بالتوقي ، كما يجتمع راعي الماعز والصيد اذ يحجر شبكه من بين المياه . يحط المحراث ثلثة ، فيصل بها

(١) وهو يريد صغار الوزغ لان الحرباء لا تركض

الى ملقى المجاذيف التي تشق الامواج . وفي وسط غابة قرب البحر يجتمع الملاحون فيتحدثون مع الخطابين ، بينما يتراقع هدير المياه ، وخوار الابقاد ، وخفيف اوراق الشجر . مشهد الجبال والشجر ، والملاحة والغابة .^(١) وان هذا المشهد لذكرنا بمشهد آخر اقرب الينا جداً من وصف ننوز ، وهو الوصف الذي يتتدى به الاخوان تادو كتابها في « طريق دمشق » ، واصفين سحر الجبال في فنيقية ، مستندين خاصة الى المقابلة والتضاد « بين البحر الثلاثي واوفر جبال العالم اخذاً وتأنيراً - هناك تترامك الصخور الزرقاء ، او البنفسجية ، والغابات والبساتين - والتلج بكآل القمم مدة طويلة من السنة . اما الساحل فحيناً يستطيل قفراً من الرمال والحصى ، وحيناً يرتفع شرفة على البحر المتوسط ، وتادة يوتف ، بين الجبال التي لا تبعد منه ، خلجاناً عميقة من المزروعات الخضراء . ينبت فيها الزيتون والتوت والليمون والكرم وتتقدم حتى يحجز الموج بين القمح والشير . . . »

جمال بيروت الثمان غير المنفصل عن ساحل فنيقية وجبال لبنان افا قولنا في احلام رجال السياسة من ذوي الاخيلة المشرومة الذين ارادوا ان يفصلوا مساجمهم الله في هذه الوحدة الساحرة ؟ اين لي شعر ننوز اذ يسترعي آلهة لبنان في بدو نشيده الحادي والاربعين فيصف جمال بيرويه ، الهة الماء الحاملة اسم بيريت ! ولكن الآلهة ابعد من ان تجيبنا ، فلنسأل العلماء والمؤرخين . قام احد علماء الالمان ، المدعو ستروخ ، منذ ثلاثة قرون فألف اطروحة لاتينية بعنوان بيريتوس (Berytus) خصها بوصف مدرسة الحقوق القديمة في مدينتنا . ولا تزال مكتبتنا الشرقية تحفظ نسخة من هذا الكتاب النادر الوجود . واذا اخذنا بقول صاحبه ، وأبنا ان موتسي الجامعات لم يكونوا يضمنون الحبر الاول الا بعد ان يقوموا ببحث دقيق عن بحال الموقع واخلاق المكان . ثم يؤكد ستروخ بكلمة رزانة ، في ما يخص مدينة بيروت ، انه لم يكن بإمكان الآلهة تيسيس ، التي عاونتها

(١) ننوز : ملخصه في دبرنيرس النشيد ٤٠ : الايات ٣٤٠ . . .

مبتغياً نفسها مع جمهور الالهات والبهجات ، ان تختار مشهداً اجل ولا مكاناً اوفق .

وكانت تلك الجامعة الفقهية التي أنشئت في العصر الروماني ان لم نقل بضاية الامبراطورية الرومانية . على ان الامبراطورة اظهروا عليها عطفًا خاصاً ، كما انهم عملوا دائماً على تعزيز بيروت في مختلف الاحوال . فكانت غاية سياستهم ان يحولوا المدينة الى مركز « روماني محض » ، كما يقول القديس غريغوريوس الصبائي . فانعم عليها الامبراطور اغسطس بلقب « المستمرة الرومانية » ثم اعطاها « الحق الايطالي » ملحقاً ارضها بالارض الرومانية نفسها ، وهو شرف نادر جداً خارجاً من منطقة ايطالية . وقد اقام فيها فرقتين من قدماء المحاربين . وما فتى يعمل على تحسينها ، هو وخلفاؤه ، بانين فيها المراسع ، وميادين السباق ، والحمامات ، والشوارع ذات الابواب والقناطر . وقد زاد الملك هيرودس وابناء اسرته في عدد هذه الآثار ، اذ رأوا انهم بهذا الامر يفوزون برضى الامبراطور . ولا يفتأ هنا ألا ان نتساءل عما دفع رومة الى اظهار ما اظهرته من العطف على مدينة بيروت ؟

لقد خسر الاستاذ بول كوليه بتاريخ المدرسة الفقهية في بيروت كتاباً يعتبر خاتمة الابحاث في الموضوع . وهو يرى ان سبب تأسيس هذه المدرسة ، وهي اقدم المدارس الفقهية وواسعها شهرة ، يعود « الى اهمية بيروت السياسية من حيث كونها مفتاح الشرق ، وإلى اهمية مرفأها الاقتصادية » . على اني اتردد هنا في اتباع رأي الاستاذ العالم . فلم تكن بيروت من جهة الاهمية السياسية ومن جهة كونها مفتاح الشرق خاصة ، لتقابل بانطاكية العاصمة السورية البديعة ، المدينة الثالثة في الامبراطورية جمعاً . ثم ان الدور السياسي الذي كان يمثل مرفأ بيروت على عهد الرومانيين كان دوراً ثانوياً لا يوازي في شيء اهمية مرفأ صور حيث كان يقيم دائماً حاكم فينيقية . وهنا لا بد من القول ان قرب جبال لبنان التي تكون عنصراً قوياً من عناصر بيروت الثنائية ، لم يكن ليهي المدينة لتكون « مفتاح الشرق » او منفذاً للداخلية . وهو ما يظهر واضحاً لمن يتنبه للمعوقات العديدة التي تقيها سلسلتا لبنان امام المواصلات بين ساحل بيروت

وداخلية البلاد . هذا ولست لانكر ما كان لبيروت من الاهمية النسبية في السياسة والاقتصاد ، على انني لا اعتقد ان هذه الاهمية تكون السبب الوحيد في اختيار الرومان لها مجالاً لما اقاموا فيها من المؤسسات . بل ارى ان الامبراطور اغسطس نفسه أخذ مجال الموقع وسحر المشاهد الثالثة . ومن الشواهد على ذلك لقب السعيدة (Felix) الذي الصقه بها . وان وجود الجوالي الرومانية ، وما كانت تتمتع به المدينة من الامتيازات عملت على زيادة ازدهارها حتى تحولت مدينتنا الى جزيرة لاتينية محضة في هذا البحر الطامي من اليونانية الشرقية . فكانت بيروت رومة صغيرة حافلة بمدارس الغراماطيق اللاتينية والفصاحة اللاتينية ، مخرجة ادباء كباراً رفعوا مدة قرنين كاملين لواء الادب اللاتيني بعد عهد اغسطس . ولم يلبث سكان هذه المدينة الرومانية المتشعرون بالحق الايطالي ، وهم حفدا الفتيقين المشهورين بمذقتهم واخذهم بالامور العملية ، ان شعروا بضرورة الاضطلاع بالشريعة الرومانية . وهكذا ، على ما نرى ، نشأت في اواخر القرن الثاني جامعة الفقه الشهيرة ، فحملت اسم بيروت حتى اقصى اطراف الامبراطورية ، وازافت الى جمال فنيقية ولبنان جاذبية العلم الفقهى حتى كادت تحتكره نوعاً ما .

يشهد بذلك القديس غريغوريوس التزيثي اذ يدعو بيروت « المدينة الشهيرة في فنيقية اللطيفة ، مركز الثرائع الرومانية » . وفي العصر نفسه نرى ذكر بيروت في « *Expositio totius orbis* » مرصوفة بانها « مدينة وافرة الرغد فيها تعليم الحق اساس الفقه الروماني » . وكذلك قول ليانيوس الخطيب الانطاكي الذي يدعوها « مدينة فنيقية الفاتكة الاناقة » و « الفاتكة الجمال » و « الكلية الجمال » . وهكذا سئت الطريق لجميع من كتب عن بيروت بعد هؤلاء ، حتى اصح من المقرر التقليدي انه كلما ذكر اسم بيروت اردف بنعت مرادف للجمال او الحسن او الاناقة او الظرف او ما شاكل ذلك بصيغة المبالغة او التفضيل . قد يقولون ان هذا من تأثير الاسلوب البيزنطي في المبالغة . ونحن لا ننكر ذلك . ولكن نلاحظ انه ما من مدينة اخرى في الشرق الادنى نالت مثل هذه النعمت . ومن الضروري ان نلفت النظر لشهادة الخطيب ليانيوس المتضلع

من الثقافة اليونانية . فانه بينما يذكر محاسن مدينتنا ، يمتجج بقوة على ما تقوم به من جنب الشبية الدارسة الى مـاهـدما ، حتى ان طلاب انطاكية انفسهم كانوا يقصدونها ، فيحدثون الفراغ حول منبر الاستاذ الخطيب . فهو يتربع اعضاء مجلس الشيوخ في انطاكية قائلاً : « كيف لا تشترّون اذ ترون اينساءكم يركبون البحر كل سنة الى مدينة بيريت ؟ لقد قُضي على البلاغة وعلى اللغة اليونانية . حق لم يبق من جاذب اليوم الالفة الايطاليين وعلم الشرائع . » ولا يخفى ما في هذه الحملة المخلصة من فرائد اذ تدلنا على انه في اخريات القرن الرابع كان تعليم الحقوق ، في بيريت ، يلقي باللغة السلاينية . وظلت بيريت تتمتع طويلاً بهذه الشهرة وهذه النعوت ايضاً حتى اننا زى اسمها في دستور الامبراطور يوستينانوس مقروناً باعظم النعوت بمصانعة فهي « الفائقة الجمال » و« البديعة الحسن » وما شاكل *pulcherrima* - « *splendidissima* » *pulcherrimum oppidum* - « *civitas* » — يُضاف الى ما تقدّم تماير وصنية من نحو « ام الشرائع » و« مغذية الفقه » وما الى ذلك مما زاه في وثائق الدولة وفي وثائق الكنيسة ايضاً . وهو ما يجعل جمال بيروت مذكوراً ذكر الحقائق الرسمية المقررة في منشورات الحكومة كقانون يوستينانوس .

للترجع بالفكر قليلاً الى تلك الجامعة القديمة ، ولشكر اساتذتها النظام الخالدين الذين دعوا بحق « معلمي المسكونة » . بففضلهم دخلت مدينتنا في تاريخ العالم ، وبفضلهم حازت اكليل المجد والجمال .

(له حلة)

